وقادة الجيش، فاختار كلّ فريق أميراً من أبناء العائلة المالكة، وتفرغ لتصفية الطوائف الأُخرى، ممّا أصبح كلّ ذلك أسباباً قوية لضعف الدولة وانقسامها وانحلالها أيّام الفتح الإسلامي.

على أنّ الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزرادشت، وتطرّق الخرافات والأساطير إلى المعتقدات الزرادشتية، تسبب في حدوث مزيد من التشتّت والاختلاف في آراء الشعب الإيراني وعقيدته، ممّا أفقده الثقة والإيمان بتلك المعتقدات.

وقد أدّى تردّي الأوضاع الاجتماعية، والصراع الطويل بين فارس والروم في خلال عشرين عاماً، إلى عقد الصلح بينهما على أساس أن يدفع الروم إلى فارس ما يعادل (٢٠ ألف دينار)، إلاّ أنّ الروم عادوا إلى الحرب والمعارك الطاحنة مرّة أُخرى لفترة سبع سنوات، تمكن فيها الملك الفارسي خسرو برويز في ٦١٤م من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين وأفريقية، ونهب أورشليم، وحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح عليه السلام، وقتل ٩٠ ألف نصراني. وقد حدث ذلك في زمن بعثة الرسول صلى الله عليه وآله و قد حزن المسلمون على هزيمة الرّوم الّذين كانوا أصحاب كتاب، و لم يتخذ الرسول صلى الله عليه وآله موقفاً خاصّاً اتّجاه هذه الأحداث حتى نزل الوحي عليه مبشّراً بانتصار الروم في المستقبل القريب، وقد تحقّقت هذه البشارة في سنة ٦٢٧ م.[1]

وقد وضع الجيش الإسلامي بحملاته الناجحة، حداً لتلك الأوضاع المضطربة، ونهايةً لذلك الصراع السياسي الدامي الذي استمر خمسين عاماً، وفسح المجال لأن يختار الشعبُ الفارسي دينه ومعتقداته بحرية في منأى عن القهر والقسر.

١. راجع سورة الروم: ١ ـ ٦.

٣. التعريف بأسلاف الرسول صلى الله عليه وآله

كان من الواجب التحدّث عن أحوال أجداد النبي صلى الله عليه وآله لما كان لهم من نصيب هام في تاريخ العرب والمسلمين . ولما كان نسب النبيُ صلى الله عليه وآله ينتهي إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام فإنّه من المستحب أن نتناول أسلاف النبي صلى الله عليه وآله بالعرض والدراسة بدءاً منه عليه السلام .

١. النبي إبراهيم عليه السلام هو بطل التوحيد، جاهد في سبيل إرساء قواعد التوحيد، واقتلاع جذور الوثنية. ولد في بابل ـ التي تعد إحدى عجائب الدنيا السبع ـ التي حكمها «نمرود بن كنعان» الذي أمر الناس بعبادته إضافة إلى عبادة الأصنام، ولمّا ذكر له أنّ عرشه سينهار على يد رجل يولد في بيئته، أمر بعزل الرجال عن النساء، في نفس الليلة التي انعقدت فيها نطفة النبي إبراهيم عليه السلام ، وهي الليلة التي تكهّن بها المنجمون والكهنة من أنصار نمرود، ممّا دفع جلاوزته إلى قتل كلّ وليد ذكر. وقد حملت به أُمّه ـ أُمّ إبراهيم ـ مثلما حملت أُمّ موسى عليه السلام به، فأمضت فترة حملها في خفاء وتستر، ثمّ وضعته في غار بجبل قريب من المدينة للحفاظ عليه، وقضى في هذا الغار فترة ثلاث عشرة سنة، ثمّ انخرط في المجتمع الذي استغرب وجوده فأنكروه. ورأى في مجتمعه ظواهر التعبد لغير الله، من نجوم وكواكب وأصنام وعبادة الإنسان، ممّا دعاه إلى أن يحارب في هذه الجبهات، التي أوضحها القرآن الكريم في سوره وآياته الشريفة. وقد بدأ عمَلَه بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه، وعلى رأسهم عمه آزر، وهو عبادة الأصنام والأوثان، ثمّ اتّجه إلى جبهة أُخرى أكثر ثقافة وعلم، وهي التي عبدت الكواكب والنجوم والأجرام السماوية.

وقد أعطى النبي إبراهيم عليه السلام سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية، لم

ومن الأُمور المميزة لأبناء عبد مناف، إنّهم تُوفُّوا في مناطق مختلفة، فهاشم تُوفّي في غزّة، وعبد شمس في مكّة، ونَوفَل في العراق،والمطلب في اليمن.

كان يدعو الناس إلى الترحيب بضيوف الله وزوّاره وتكريمهم بالمال والحلال في غرّة كلّ شهر ذي الحجة:«وأسألُكُم بحرمة هذا البيت ألاّ يُخرج رجلٌ منكم من ماله لكرامة زوّار بيت الله وتقويتهم إلاّ طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً».[1]

ومن أهمّ آثاره: أنّ زعامته لمكّة كانت لمنفعة أهلها وتحسين أوضاعهم، فقد ساهم كرمُه في عدم انتشار القحط والجدب، كما أنّه حسّن من الحالة الاقتصادية في البلاد عندما عقد معاهدة مع أمير الغساسنة، ممّا دفع أخاه عبد شمس إلى أن يعاهد أمير الحبشة، وأخويه نوفل والمطلب أيضاً أن يعقدا معاهدات مع أمير اليمن وملك فارس، وذلك لتجنب الأخطار وتأمين الطرق و سير القوافل التجارية. وقد عُرِفَ عنه أنّه المؤسس لرِحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن.

إلاّ أنّ كلّ تلك الإسهامات من جانب هاشم، كانت دافعاً إلى أن يحسده أُميّة بن عبد شمس ابن أخيه، وذلك لما حظي به من مكانة وعظمة وتقرّب إلى قلوب الناس، الأمر الذي أجبرهم على الحضور عند كاهن من كهنة العرب، تقضى لهاشم بالغلبة، فأخذ منه الإبل وأخرج أُمية إلى الشام نافياً لمدّة عشرة سنين، حسب الشروط التي تمت بينهما. وتبيّن هذه القصة جذورَ العداء بين بني هاشم وبني أُميّة من ناحية، وعلاقات الأمويين بالشام وارتباطهم بها حين تخذوها عاصمة لدولتهم بعد ذلك من ناحية أُخرى.

ومن أشهر أولاده : شيبة، الذي عُرِفَ بـ«عبد المطلب» لأنّه تربى وترعرَعَ في

١. السيرة الحلبية: ١/ ٦.

حجر عمّه المطلب، حيث كان العرب يسمّون من تَرعرَعَ في حجر أحد، وينشأ تحت رعايته، عبداً لذلك الشخص.

٥. عبد المطلب: وهو الجدّ الأوّل للنبي العظيم ﷺ ورئيس قريش وزعيمها. وأودعت يدُ المشيئة الربانية بين حنايا شخصيته نورَ النبي الأكرم ﷺ ولذا كان إنساناً طاهر السلوك، نقيّ الجيب، منزّهاً عن أيّ نوع من أنواع الانحطاط والفساد، وأحد المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وقد اشتهر موقفه الإيماني في عام الفيل، حينما أمر جماعته بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب، ونزل إلى الكعبة يدعو الله ويستنصره على أبرهة وجنوده مناجياً: «اللّهمّ أنت أنيسُ المستوحشين، ولا وحشة معك، فالبيت بيتُك والحرمُ حرمُك والدار دارُك، ونحن جيرانُك، تمنع عنه ما تشاء، وربّ الدار أولى بالدار».

وفي الصباح خرجت أسرابٌ من الطيور من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره،وحجر في كلّ من رجليه وحلّقت فوق رؤوس الجند، ورجمتهم بالأحجار بأمر من الله محطمة رؤوسهم وممزقة لحومهم، وقد أصاب حجر منها رأس أبرهة القائد، فأمر جنوده بالتراجع والعودة إلى اليمن، إلاّ أنّهم أُهلكوا في الطريق، حتى أبرهة نفسه مات قبل وصوله صنعاء.[1]

وقد نتج من هذه العملية، أن تحطّم جيش أبرهة، وانهزم أعداء قريش، وعظم شأن المكيّين،وشأن الكعبة المشرفة في نظر العرب وغيرهم، فلم يجرأ أحد بعد ذلك على غزو مكة، أو الإغارة على قريش، أو التطاول على الكعبة. كما أنّها من جانب آخر، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة، فقد زادت من غرورهم وعنجهيتهم واعتزازهم بعنصرهم، فقرروا تحديد شؤون الآخرين

١. السيرة الحلبية: ١/ ٤٣؛ الكامل في التاريخ:١/ ٢٦٠؛ بحار الأنوار:٥/ ١٣٠.

والتقليل من وزنهم، على أساس أنّهم فقط الطبقة الممتازة من العرب. كما دفعتهم إلى التصور بأنّهم موضع عناية الأصنام (الـ ٣٦٠) إذ أنّهم فقط الذين تحبهم تلك الأصنام وتحميهم وتدافع عنهم!!

وقد دفعهم كلّ ذلك إلى التمادي في لهوهم ولعبهم، والتوسع في ممارسة الترف واللّذات، وإظهار الولع بشرب الخمر، حتى أنّهم مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة، وأقاموا مجالس أنسهم إلى جانب تلك الأصنام، متصورين أنّ حياتهم الجميلة هذه هي من بركة تلك الأصنام والأوثان!!

كما أنّ هذه الحالة جعلت قريش تقوم بإلغاء أيّ احترام وتقدير للغير فقالوا: إنّ جميع العرب محتاجون إلى معبدنا، فقد رأى العرب عامةً كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة خاصةً، وكيف حَمَتنا من الأعداء.

ومن ذلك بدأت قريش تضيّق على كلّ من يدخل مكة للعمرة أو الحجّ، وتعاملهم بخشونة وأسلوب ديكتاتوري، وفرضت عليهم ألا يصطحب أحد منهم طعاماً معه من خارج الحرم ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتني من طعام أهل الحرم ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكّة التقليدية القومية، أو يطوف عرياناً بالكعبة إذا لم يكن في مقدوره شراؤها. و من رفض الخضوع للأمر من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه بعد الانتهاء من الطواف ويلقيها جانباً، دون أن يكون لأحد الحقّ في مسّها حتى صاحبها.[1]

أمّا النساء فكان عليهن إذا أردن الطواف أن يطفُن عراة، ويضعن خرقة على رؤوسهن. كما أنّه لم يكن يحق لأي يهوديّ أو مسيحيّ أن يدخل مكة، إلاّ أن يكون أجيراً لمكيّ، وعليه ألاّ يتحدث في شيء من أمر دينه وكتابه.

١. كانت تسمّى عندهم «اللفى».

بالإضافة إلى ذلك، فإنّهم أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفة، كما يفعل بقية الناس، حيث تركوا الوقوف بها والإفاضة منها، بالرغم من أنّ آباءهم ـ من ولد إسماعيل ـ كانوا يقرّون أنّها من المشاعر والحج.[1]

إنّ كلّ ذلك الانفلات الأخلاقي والترف والانحراف، قد هيّأ الأرضية وأعدها لظهور مصلح عالميّ.

أمّا بالنسبة لابن عبد المطلب، عبد الله، فقد سعى إلى أن يزوّجه، فاختار له: «آمنة بنت وهب بن عبد مناف» التي عُرفت بالعفّة والطهر والنجابة والكمال. كما اختار لنفسه «دلالة» ابنة عم آمنة، فرزق منها حمزة، عمّ الرسول ﷺ الذي كان في نفس عمر النبي ﷺ[2] و قد تمّ حفل الزفاف في منزل السيدة آمنة طبقاً لما كان عليه المتعارف في قريش، ثمّ بقي «عبدالله» مع زوجته ردحاً من الزمن حتى سافر في تجارة إلى الشام، وتوفّي في أثناء الطريق.

ويرتبط بموضوع أسلاف النبي ﷺ، طهارته ﷺ من دَنَس الآباء وعهر الأُمّهات، إذ لم يكن في أجداده وجدّاته، سفاح وزنا، وهو ما اتّفق عليه المسلمون، وصرّح به الرسول ﷺ في أحاديث رواها السنة والشيعة. فقد جاء عنه ﷺ إنّه قال: «نُقلتُ من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة نكاحاً لا سِفاحاً».[3]

وقال الإمام علي عليه السلام: «وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله وسيد عباده كلّما نسخ الله الخلق فرقتين، جعله في خيرهما، لم يسهم فيه عاهرٌ ولا ضرب فيه فاجر».[4]

١. الكامل في التاريخ: ١/ ٢٦٦.
٢. تاريخ الطبري: ٢/ ٧ وهو يذكر أنّه «هاله».
٣. كنز الفوائد: ١/ ١٦٤.
٤. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٥، شرح محمد عبده.